مجلة المجمع العلمي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد الخامس والخمسون

بغـــداد

١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م

أسئلة الخطاب الفكري النهضوي العربي
الذات العربية إزاء ذاتها.. إزاء الآخر

وليد خالد أحمد حسن

الملخص :

يهتم البحث بأسئلة الخطاب النهضوي العربي ، التي كان التأسيس الاول لها قد وضع في القرن التاسع عشر ، بما شكل رؤية نظر الى الواقع من خلالها ، وفي ما صاغ لهذا الواقع من توجهات تمثلت في مجموعة من الاسئلة التي تقدم لها النهضويون الاوائل الى انفسهم والى الواقع من حولهم ، مقدمين فيها تصوراتهم لمستقبل الامة لكي تنهض بمشروعها القومي الجديد حيث كان سؤال العلاقة بالأخر / الغربي الاكثر اهمية والأشد التباسا .

المقدمة :

هل تعني عودة اللغة التي اعتمدها الفكر النهضوي العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى واجهة الاهتمام من قبل مفكري بداية القرن الواحد والعشرين ومثقفيه :- أن دورة الزمن تعيد نفسها بكل ما حملت وهل هذا الاستئناف لما كان وانقطع ، يمثل تصويباً لمسار العصر الجديد ؟ وهل أن تلك الأفكار وذلك الفكر هما البنية الحية في ثقافتنا العربية الحديثة التي بدأت أواسط القرن التاسع عشر لتشهد تناميها الفعلي بروح ثورية انقلابية ، في النصف الأول من القرن العشرين ، وترسم تراجعاتها ، التي رهنتها بتراجع المشروع القومي خلال النصف الثاني من القرن العشرين ؟

وهل هذه العودة إلى الجذور الحية ، الثقافية والفكرية ، تعبر عن رغبة ودعوة أكيدتين إلى إحياء المشروع القومي العربي بالعودة إلى منطلقاته

الفكرية التي جرى تجميد بعضها ، والقفز على بعض آخر منها ، ومحاصرة بعض ثالث بمشروعات بديلة غربية أو تصب في المشروع الغربي ؟

وهل صخب العولمة وهي تملأ أسماع الإنسانية بضجيجها ، وبأصوات تضخيم مخاطرها وما تحمل من تهديدات للذاتيـــة القومية ، وللهويـــة التاريخية ، ولتراث الأمم الحضاري ، وهو الذي يدفع اليوم في مثل هذا الاتجاه :- معرفة الذات بمعرفة تراثها وبما أسست عليه كيانها الحديث من أرضية فكرية وسياسية ، وبما اقترحت لمسيرته من منطلقات ؟

وهل في عودتنا إلى تراثنا النهضوي العربي قد اكتشفنا أن تلك اللغة التي تحدث أو كتب بها روادنا النهضويون هي اللغة الصالحة ، أو التي لا بديل عنها ، موقفا من العصر ، وتحديدا للمفاهيم والمنطلقات ، وأساسا لبناء الرؤية الجديدة ، بل هي الأساس والمنطلق في إنشاء فكر عربي جديد يتمتع بامتياز صفاء الرؤية ووضوح القصد ؟

هل تراثنا ، في هذه العودة لتجديد الحديث في قيم ومبادئ وفكر وأفكار سبق التأسيس لها . كما أسسنا بها لعصر عربي جديد ، نحاول بلورة لحظة استثنائية في التاريخ العربي ، وفي تاريخية مواجهات الفكر العربي، مؤملين التوصل إلى صيرورة تشكل توجهنا الجديد في الفكر العربي المعاصر ، بديلا لتيارات التغريب ، والتوفيقية ، والإسلامية ، وأخيرا العولمة ، التي أصبحت تمثل تيارات فعلية في الفكر والثقافة العربيين ولاسيما المعاصرة ، في واقع تشتت الخطاب القومي ، بفعل الأنكسارات التي شهدها الواقع القومي في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين [1] ؟ .

---

[1] ماجد السامرائي- الفكر العربي من اشكاليات النهضة الى اشكاليات الحداثة، مجلة الاقلام (بغداد)، العدد ٤ (تموز – اب/٢٠٠١)، ص٣.

على تلك الأسئلة / الحقيقة ، تأسس السؤال الفكري النهضوي ، متخذا لحظة البدء من الذات في مواجهة واقعها ، بناءا على تمثل هذه الذات واقعا آخر هو تقدم الآخر / الغربي ، الذي كان لاحتكاك هذه الذات به أن ولدت من عوامل الحركية فيها ما كان كفيلا بإنهاء مشكلة التأخر / التخلف . ولقد جعل الفكر من واقعه (وقتئذ) هذا لحظة البدء الفعلية .

ولكن ، في ضوء هذا ، هل في مقدورنا الكلام على سؤال عربي للنهضة ؟

عندما نتكلم في المشروع النهضوي العربي أو عن الخطاب النهضوي ، فإن ما يهمنا في الأساس هو الإطار الفكري لهذا المشروع الذي كان التأسيس الأول له قد وضع في القرن التاسع عشر ، بما شكل من رؤية نظر إلى الواقع من خلالها ، وفي ما صاغ لهذا الواقع من توجهات تمثلت في مجموعة من الأسئلة التي تقدم لها النهضويون الأوائل إلى أنفسهم وإلى الواقع من حولهم ، وقد استخلصوها من طائفة من المعايير الفكرية والاجتماعية والحضارية والسياسية ، مقدمين فيها تصوراتهم لمستقبل الأمة ، لكي تنهض بمشروعها القومي الجديد .

فإذا كان سؤال النهضة قد استخلص بعض معايير الحداثة ، وسؤال الحرية قد واجه الاستبداد والاستعمار ، فان سؤال العلاقة بالآخر / الغربي كان السؤال الأكثر أهمية والأشد التباسا ، ذلك أن العرب قد عرفوا في هذا الغربي أول ما عرفوا وجهه الاستعماري ، إلا انهم أرادوا أن يبعدوا عن هذا الوجه القبيح بعده الآخر ، الثقافي والحضاري ، الذي كان يهمهم اكثر من سواه ، فيتعرفوا من خلاله ، إلى أسرار تقدمه ، ذلك انهم أدركوا ، عبر الطهطاوي والرحالة العرب الآخرين الذين تلامسوا مع الحياة في الغرب الحديث ، أن معرفتهم العصرية ينبغي أن تتأكد من خلال معرفة المفهومات والثقافات التي عرفتها تلك المجتمعات الغربية ، وان يكون التواصل معها

تواصل تفاعل انتقائي لا تواصل أخذ عشوائي وتقليد يضر بالذاتية الثقافية والحضارية العربية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر أن لا يتركوا لنزعة الهيمنة في الثقافة والحضارة الأوربية أن تتحول نحوهم بنزوعها الاستعماري فيتقبلوها تقبل استسلام لروحها وامتثال لمنطقها ، بل كانوا قد نشدوا منها وجهها الثقافي / الحضاري الخالص ، داعين إلى أن يكون لنا ، من خلال تطورنا وتقدمنا ، إسهامنا في تحديث العصر وبناء واقع فيه ، وهو ما وجدوه يتطلب معرفة افضل وأوسع بالغرب .[٢]

لقد واجه العرب خلال القرنين الماضيين – التاسع عشر والعشرين – ولا سيما مطلع القرن التاسع عشر ، مهمات التغلب على مشاكلهم الداخلية والتحرر من تعسف الحكم العثماني ، ثم الغزو الأوربي الاستعماري ، كما كان عليهم أن يواجهوا مهمات توحيد المجتمع وبناء نظام أفضل ، كل من زاويته الخاصة وعلى أساس انتماءاته ومصالحه ومستويات الوعي التي تشكلت لديه . ولكن ما أن تم لهم ذلك ظنوا انهم سينعمون بالاستقلال ، حتى وجدوا أنفسهم يقاومون هيمنة أوربية تصر على تجزئة وطنهم واستنزاف ثرواته . وكان بين أشرس ما واجهوه بشكل خاص ، مقاومة الاستيطان في الجزائر وفلسطين .

وما أن بدأوا يحصلون على الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية في النصف الثاني من القرن العشرين حتى وجدوا أنفسهم معرضين للهيمنة الأمريكية ، وما زال العرب يعانون هذه المشكلة ونتائجها السلبية حتى يومنا هذا . وخلال ذلك كله لم يكن الصراع الداخلي مع الذات في

---

[٢] ماجد السامرائي- البحث عن جوانب جديدة لأسئلة النهضة ، مجلة الاقلام (بغداد) العدد ٥ (ايلول- تشرين الاول/ ٢٠٠٢)، ص٣ .

مجابهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أقل قوة من الصراع مع الآخر.[٣]

وسط هذا الخضم نشأ الفكر النهضوي العربي ، في مرحلة انتقالية نتجت في البدء من حصول انحلال تدريجي في الخلافة العثمانية وصعود أوربا ، وهو ما عزز من قدراتها على تهديد المنطقة ودمجها في النظام الاقتصادي العالمي ، فنتج عن ذلك قيام تناقضات داخلية جديدة . واقتضى ذلك حدوث جدل بين المفكرين العرب كل من منطلقاته وانتماءاته الخاصة حول قضايا الهوية / الذات ، والتاريخ / التراث والنهوض .. استجابة للتحديات التاريخية الجديدة .[٤]

في سياق هذه المواجهات الداخلية منها والخارجية ، يمكن أن يقال إن الفكر النهضوي العربي بتياراته ... بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ يتشكل تدريجيا من خلال مقاومة الهيمنة الأوربية وفي الوقت ذاته ، من الاحتكاك الثقافي وانتشار التعليم الحديث ، وهو ما ساعد بدوره ، على قيام الجمعيات والمنتديات الثقافية والحركات السياسية والاجتماعية المتصارعة .

في هذا السياق توالت الأسئلة الفكرية من مواقع مختلفة بل متناقضة التي على أساسها تشكلت تيارات الفكر النهضوي العربي المختلفة حول معرفة الذات وفهم الآخر :-

ـ ما السبل الفضلى للخروج من حالة الركود والانحطاط والتخلف والجهل إلى حالة الحركة والتقدم والعلم والوعي والقوة ؟

---

[٣] حليم بركات- المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغير الاحوال والعلاقات، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٨١١ و ٨١٢.

[٤] المصدر نفسه، ص٨١٦.

ـ ما موقفنا من النظام السياسي العربي السائد ، وكيف يمكن إصلاحه أو تحوله ؟ كيف نحرر أنفسنا من هذا النظام ونقيم نظاما بديلا يتجاوب مع رغبات الشعب ويمثل إرادته ويستند إلى قانون يتساوى أمامه المواطنون كافة ، من دون تمييز ، وبصرف النظر عن الانتماءات المتعددة ؟ كيف التغلب على الاستبداد ؟

ـ ما العلاقة بين الحاكم والمحكوم ؟

ـ كيف تتحقق العدالة الاجتماعية ؟ ما هي وسائل التغيير ؟ من يعمل من أجل التغيير ومن يقاومه ؟

ـ أنحافظ على الخلافة الإسلامية والثقافية الدينية أم نستقل عنها ، ونقيم مجتمعات قومية علمانية ؟

ـ كيف ننهض من كبوتنا ونصلح حياتنا ؟

ـ ما طبيعة الضعف والخلل في الشرق وما مصدر قوة أوربا ؟

ـ كيف يكون التعامل مع الغرب وما طبيعته ؟ أو كيف يكون التعامل مع الحضارة الغربية ؟ ـ أنقبل على الثقافة الغربية أم نرفضها كليا أو جزئيا ؟

ـ كيف تكون الاستعارة من الغرب من دون التخلي عن الأصالة ؟

ـ أنحدد هويتنا على أساس ديني أم عرقي أم قومي علماني أم طبقي ؟

ـ أنصلح المجتمع بالدين أم بالعلم ؟

إن الأسئلة هذه التي أثارت نقاشات حادة خلال تاريخ تطور الفكر النهضوي العربي الحديث والمعاصر ، لم تتوقف بانتهائها . وقد تنوعت محاولات الإجابة عنها في إطار التحديات والمجابهات الخارجية والداخلية

فتكونت بمرور الوقت تيارات فكرية واضحة المعالم، دينية محافظة ومنفتحة ، وتحررية تحديثية (ليبرالية) ، وثورية نقدية تقدمية ... .[٥]

إذا ما تمعنا اكثر في أسئلة النهضة هذه سنجدها متلازمة مضمونا في ما تسعى إلى أحداثه على أرض الواقع : -

فسؤال الحرية الذي هو عن حرية الرأي والتعبير ، وحرية الفكر والوجود يشكل الأساس والمنطلق لسؤال التقدم . إذ لا تحقق للتقدم بدون حرية ، ولا معنى للتقدم من غير حرية .

وسؤال العلاقة بالآخر / الغرب ينصرف إلى بناء المجتمع العصري والأخذ بمفهوم الحداثة في ما يتطلع إليه المجتمع والأمة من : تحرر من الاستعمار ، واستقلال في الموقف ، وإقامة الحوار الثقافي والحضاري مع الآخر / الغربي على أساس الوجود الإنساني المشترك ، والحق ، والقانون بديلا عن الهيمنة والاتباعية والاستتباع .

وكان الهدف والغاية عند النهضويين الأوائل من إثارة مثل هذه الأسئلة هي :- الخروج من حالة التخلف ، وبناء المجتمع النهضوي الشامل ، فكرا وثقافة ، وتوجهات إنسانية .

ولعل هذه الأسئلة التي شكلت الإطار العام للبنية النهضوية والمشروع النهضوي العربي ، هي المساهمة الرائدة للجيل الأول ، بما شكلته من أرضية فعلية له ، أو وفرت من ممكنات واقعية لتنهض عليها حركة الفكر ، وتستقيم الأفكار الخاصة ببناء واقع مجتمعي جديد يتخلص من عديد الملابسات الفكرية والتاريخية ، ويوجد سياقات للرؤية والعمل ، تتحقق بها الإجابة الفعلية والعلمية عن مثل هذه الأسئلة .

---

[٥] المصدر نفسه ، ص ٨١٦ و ٨١٧ .

بل الأهم في هذه الأسئلة ، أنها لم تكن أسئلة مجردة ، وإنما جاءت أسئلة ترسم توجهات ، وتقترح مسارات ... وقد انخرط النهضويون أنفسهم بفكرهم وعملهم ، لتكريسها في صيغة أطروحات لمجتمع الغد.

إن القرن التاسع عشر كان قد شكل البداية الفعلية والحقيقية لانطلاقة الفكر النهضوي العربي ، فذلك لأنه كان عصر إعادة اكتشاف الذاتية الفكرية والثقافية ، والحضارية ، وما تتعين فيه تاريخيا في مجالات المعرفة هذه المعرفة التي ستكون وسيلة هؤلاء المفكرين النهضويين لإبداع تاريخ عربي جديد ، وفتحا للطريق إلى عصر الحداثة ، وما عمد إليه ، هؤلاء المفكرون من جعل الحياة والفكر وتجليات التفكير عنده مرتبطة بالتاريخ فذلك لأنهم أرادوا لمشروعهم ، الثقافي والفكري والحضاري ، أن يكون عربيا حيث تطورت عروبته لتصبح فكرا قوميا ، عمد ، من جانب تاريخي ، أن يستعيد التطابق بين التاريخ والحياة ، ومن جانب الحاضر – تحقيق التطابق بين الحياة ومشروع الإنسان العربي المستقبلي فيها ، وفي هذا المجال كانوا قد جعلوا من المعرفة طريقا للعمل .

من هنا ، تعين المعنى التاريخي لعملهم في إبعاد اتصال عقل الأمة بالعالم مباشرة ، من دون الاعتماد على ما ساد من عقائد اعتمادا أساسيا في تفسير حركة التاريخ . لقد كانت هناك الأمة / الوجود ، الحضارة / الثقافة وسيلة المرور بقنوات التاريخ ومعاينة حركته .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر : – حاول هذا الفكر ، وعمل المفكرون النهضويون على التخلص من عديد الوثوقيات ، تاريخية كانت أم فقهية / مذهبية . وبذلك كانوا قد حققوا لهذا العقل النهضوي مرونة الحركة . سنجد هذا الفكر مرتبطا جذريا بما من شانه بناء أو المساعدة في بناء ذاتية عربية جديدة ثقافية – فكرية وحضارية وتاريخية – تتجاوز أو تهدم تلك

الذاتيات التقليدية التي ساعدت عصور التأخر العربي التي كانت عصور انسحاب فعلي من التاريخ على تكريسها ، وصولا في النهاية ، إلى بلورة جوهر عقلاني في الفكر والنظر ، بوجه خاص . [٦]

وحين شرع الوعي النهضوي العربي ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، يبحث عن ذلك الوجه الغائب من أفق حاضره ، الذي كانت قد شكلته بقسماته البارزة وملامحه ، الثقافة العربية في منجزها الحضاري ، اتجه هذا الوعي ، أول ما اتجه ، إلى تراثه القومي .

وإذا كانت بعض اللفتات قد ندت ، من هنا وهناك ، تبحث في وجه العالم عن قسمات يمكن أن نجد فيها ما يمكن أن يقوم عليه أساس جديد للعلاقة ، باستعادة ما يمكن أن ندعوه بالصلة المنقطعة بين الإنسان في واقعه الحاضر وكينونته الفكرية والحضارية ذات العمق التاريخي فإن تراثنا النهضوي ، بما انفتح عليه من آفاق ، أو فتح من آفاق جديدة بوعي جديد، كان ان حقق نهضة فعلية للعقل العربي ، دافعاً إياه ، في حماس ذاتي ، لبناء المستقبل على الصورة التي تعيد الأمة ، بحيوية عقلية متجددة ، إلى ما تتمثل فيه من واقع حضاري .

ولعل السؤال النهضوي الحقيقي الذي بثه مفكرونا النهضويون في القرن التاسع عشر هو : كيف نتقدم؟ وإذا كان هذا السؤال ، قبل أن يتبينه مفكرو القرن العشرين ، لفه كلام كثير ، فإن ما انبثق عنه ، من بعد ذلك ، لدى أكثر من مفكر عربي كان مهما للغاية .

---

[٦] ماجد السامرائي- تلك الافكار الحية، دعوة الى اعادة قراءتها، مجلة الاقلام (بغداد) ، العدد ١ (كانون الثاني – شباط/ ٢٠٠٢) ، ص٤ و ٥.

إلا أن القضية على وضوحها غرقت في كلام سجالي لم يؤد إلى شيء أكثر مما أدى إلى تعطيل المشروع النهضوي العربي ذاته عن التحقق ، ذلك أن الرؤية الأساسية التي كان يمكن أن تعاود السير على طريق التقدم ، انسحبت لتحكم واقع المجتمع العربي بمزيد من العقم الذي أنتجته الأصوليات الجديدة ، وكان مما في ذلك هو تبدد هذه الرؤية الأساسية بتعطيل السؤال أو نفيه ، ووضع كل شيء في حاضرة الجواب الجاهز، حيث قيل :- إن تراثنا يعرف كل شيء ولذلك فإنه يمكن أن ينوب عنا .

لقد أدرك مفكرونا النهضويون ذلك ، وأدركوا معه أن قوة الإنسان في عصره من قوة السؤال الذي يواجه به هذا العصر . إلا أنهم كانوا محاصرين بهذا الفهم للتراث وبالمؤسسة معا . ومع ذلك فتحوا طريقا نفذوا منها إلى ما كانوا يريدون من طرح للسؤال . وكان ذلك من خلال تحليلهم الأجوبة التي قدمها لهم هذا التراث ، وغوصهم عميقا فيها . ولم يكن ذلك بالأمر السهل . فنحن لكي نحلل إنما نتقدم بقضايانا التي نعيش أو نواجه . وهذا يتطلب تغييرا في النظام المعرفي الذي هو ، بحسب عرف المؤسسة ، نظام قبول ، وكل خروج عليه يعد انحرافا ، والانحراف مروق ، والمروق ردة ، وعقاب الردة القتل .

من هذا كان البحث في الحرية ، وفي حرية الفكر أمرا أساسيا . وفي هذا البحث كان لابد من السؤال، بل إن السؤال هو الشرط القائم لعملية البحث هذه ، وكان البحث في (طبائع الاستبداد) أول سؤال خرق السائد ، وخرج على المألوف ، ليقول بشجاعة :- إن الاستبداد مؤسسة . ولعل أهمية هذا الطرح انه جاء من داخل بنية الثقافة العربية ، وتوجه إلى صميم المؤسسة التي تفترض ، هي نفسها ، قيامها على عنصر من عناصر هذه الثقافة تحكم بأسمه.

ولعل هذا السؤال ، العنيف في قوته ظاهرا وجوهرا قد مثّل في حينه شكلا من أشكال التقدم . وقد كان مفكرونا النهضويون حين توجهوا مثّل هذا التوجه ، قد وجدوا في أنفسهم القدرة على الرؤية الصحيحة والسّليمة فضلا عن إحساسهم بامتلاك إرادة التغيير .[٧]

إن السؤال (النهضوي) يعيدنا إلى البحث في أساسيات هذا الفكر ، في ما انطلق منه ، وفي ما أسس عليه ، وفي طبيعة ما اتخذ من توجهات صاغها في خطابه ولا نقول صاغت خطابه انطلاقا من اللحظة المعاصرة التي هو فيها .

ولم يكن سؤال النهضة خارج السياق التاريخي للمشروع النهضوي العربي الذي كانت بدايته بداية فكرية وأساسه كذلك ، والمنطلقات التي اتخذ فقد كان الهدف والغاية هو :- دخول العرب في العصر الحديث ، أمة لها ثقافتها ذات العمق الحضاري ، وتاريخها الذي يعزز وجودها ، ولغتها وإنسانها ، وكان هذا السؤال ، في حركيته التاريخية الجديدة ، عربيا ، سواء بالمشكلات التي تبناها أم بالآفاق التي عمل على أن يفتحها لعقل عربي جديد في واقع عربي جديد . ولم يتأرجح هذا السؤال بين واقع عربي ومرجعية غربية إلا في مرحلة تالية ، مع الجيل النهضوي الثاني في بدايات القرن العشرين ، إذا أصبح هم هذا الجيل ، تحقيق الاختلاف من خلال البحث في فكر مختلف . إذ بدا كما لو أنه غير مقتنع بتلك الأجوبة التي قدمها الجيل النهضوي العربي الأول ، ليعدها من قبيل الأجوبة التقليدية . وهنا عمد إلى خلخلة البعد التراثي في هذه الثقافة العربية ، ومن ثم تقديم ما يمكن أن يدعي بديلا موضوعيا يستمد أصوله من مرجعيات أخرى مغايرة كل

---

[٧] المصدر نفسه، ص ٣ و ٤.

التغاير ، أو في إعدام الوجود الثقافي والفكري العربي ، والإنكار عليه القيام بأي دور جديد ، ونفي صلاحيته لأن يكون خلفية موضعية تستند إليها الاطروحات الجديدة في ما ترسم من طريق أو تفتح من آفاق الفكر والتفكير ، وكان البديل هو :- القول بمطلقية الحضارة الغربية وثقافتها والأساس المعرفي الجديد الذي تقدمه من أجل نهضة جديدة لا يعيقها واقع كان ، ولا يحد من مدياتها تراث ، عقلانيا كان أو غير ذلك ، إلى تأرجحات بين التيارات في إطار توفيقية قاتلة .

غير أن السؤال النهضوي العربي لم يكن بعيدا ، أو غريبا عن السيرورة الحضارية الجديدة في أفقها الإنساني العام ، فهو فضلا عن عدم معاناته من أزمة (تراث / حداثة) التي حاول بعض من طرفين مختلفين رؤية وتوجها أن يعلق عليها تطرفاته (إن باتجاه التراث – العودة الكلية إلى الماضي – أو باتجاه الحداثة – محاولة الأخذ بتيارها الغربي والتبعية المطلقة له ...) كان اللحظة التاريخية بوجه أساسيّ ، لذلك السؤال ، هي المحرك لسؤاله الحقيقي والمنطلق للأسئلة الأخرى جميعا : – كيف نتجاوز التأخر ؟ مع تحديد الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الخطاب النهضوي العربي .

هنا ، تأكدت لنا ملاحظة مهمة ، وهي :- إن المفكرين النهضويين العرب الأوائل قد انشغلوا بهموم وضع ستراتيجية عربية جديدة للفكر المعلن من قبلهم ، وللتفكير بواقعهم من أجل تجاوز تأخره وإنهاء تخلفه ، وبناء واقع ثقافي أنساني وحضاري تاريخي جديد يليق بأمتهم ، بما لها من ثقافة ذات عمق أنساني واضح ، وتاريخ له أبعاده الحضارية المتميزة . وهم إذ أكدوا الشخصية / الهوية العربية ، لم يكن ذلك رد فعل على نزعة التمركز الأوربي

على الذات وإنما كان من أجل تعيين واقع النهضة المطلوبة ، بما للأمة من خصوصية الوجود والثقافة والتاريخ .

هذا من جانب ، وعلى أساس هذه الرؤية / الموقف ، من جانب آخر ، لم ينشغل النهضويون الأوائل عن مشروعهم النهضوي ، بآفاقه ومحدداته ، بمقارعة الغرب ، كما حصل في حياة الجيل النهضوي الثاني بل انصرفوا إلى تلك الأسئلة الحقيقية التي كانت مستلبة من نفوسهم وواقعهم ، وعملوا على بناء واقع نهضوي جديد ، خطاب يجمع بين التراث في أصوله الرفيعة المتخطية لزمنها ، والحاضر في ما يراد له من صور التحديث ومقومات الحداثة .

صحيح أن هذا الجيل لم يصطدم كما اصطدم الجيل الثاني بالظاهرة الاستعمارية الغربية، التي جلبت معها كل معدات الاحتلال :- من أسلحة احتلال الموقع إلى ثقافة احتلال العقل ، إلا أن ما كان في مخطط هذه الثقافة الاستعمارية لتكريس واقعها على هذه الأرض الجديدة ، هو :- البدء بتشتيت توجهات الخطاب النهضوي العربي ، وتفتيت مقوماته الأساسية ، وقد استطاعت بما امتلكت من منهجيات أن تحقق هدفين في أن واحد :-

الأول - أخرجت هذا الخطاب النهضوي العربي من لحظته الخاصة بجذريتها وشمولها ، إلى واقع آخر يتحدد في المساءلة عن موقعه في إطار السياق المعرفي الجديد الذي تمثله الثقافة الغربية الحديثة بتراث عصر الأنوار، وبموجبات الحداثة المتعاقبة فيها ، وبطابعها العقلاني الذي خاض ويدعو إلى خوض المغامرة الفكرية الجديدة ، وكان ذلك إخراجاً للثقافة العربية من حيز التفكير ببناء ذاتها الجديدة من خلال ذاتها التاريخية ، إلى نطاق معرفي مبين على العلوم ، حاضر الثقافة الغربية وواقعها الراهن ، أكثر مما هو بناء المجهول .

الثاني – ما أنشأه ذلك ، أو ساعد في تكوين قطب معارض لهذا الذي تجاوز حالة المفكر به إلى الواقع الماثل. ولعل نقطة الخطأ القاتل في هذا التوجه هو أن الفكر العربي ، الذي تكون في إطار هذه الرؤية / الموقف ، لم يتخذ سبيله إلى الجدل والحوار مع الآخر وإنما تقدم ، بديل ذلك ، بأطروحة التعارض الحتمي بين العرب والغرب . وقد تم ذلك في فضاء محاصر أو مهيمن عليه من قبل هذا الآخر الغربي.[٨]

من زاوية أخرى للنظر ، أي أن أسئلة النهضة هذه قد تقدمت بمشروع واضح ، وفي الوقت نفسه عمدت إلى نفي نقيضه ، فجاءت في جانب غير يسير منها ، حاملة لرؤية عقلانية شكلت الأساس الأول للنزعة العقلانية في الفكر العربي الحديث ، وهي المهمة الفكرية التي سيضطلع بها الجيل النهضوي الثاني مع البدايات الأولى للقرن العشرين ، في مشروع يتوجه بالفكر إلى الواقع ، ويبلغ بذلك مدى أبعد من سابقه ، وأكثر صرامة ، وتحديدا في عديد المفهومات التي وضعوها موضع الرؤية بأبعادها وما لها من آفاق .

وإذا كان الجيل النهضوي الثاني قد انتظم فكرا اشد وضوحا – تحررية تحديثية (ليبرالية) على النمط الغربي ، أو عربية تأخذ بمثل التاريخ والحضارة العربية – فإن عددا من أهم مفكري هذا الجيل قد عمد إلى تكريس – الغرب الفكري والثقافي – في الثقافة العربية ، وقد وجد فيه نموذجا حيا للنهضة ، فضلا عن عامل الاستلاب الثقافي الذي كان له تأثيره في فكرهم

---

[٨] ماجد السامرائي – الفكر العربي من اشكاليات النهضة الى اشكاليات الحداثة ، مصدر سبق ذكره، ص ٤ و ٥.

وفي تحديد توجهاتهم ... إلى الحد الذي أخذ فيه على بعض الأسماء من هذا الجيل نزعته اللا – تاريخية بمعنى من معاني (اللا – تاريخية) .

إن اندفاعة عدد من المفكرين العرب ولاسيما في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، باتجاه الفكر الأوربي التحرري التحديثي ، ومحاولة وضع أسس واضحة له في واقع الفكر العربي ، لم يكن إلا بحثا عن طريق التنوير الذاتي . وتأكيدا لفكرة الحرية ، في المستوى الفكري في الأخص ، وتأطير لصورة حياة تضم من شمول الفكر والتفكير ما يجعل لقضية التقدم فيها ، مساراتها الواضحة . وفي هذا التوجه من المفكرين التحرريين التحديثيين العرب نجد تأثير الثقافة الأوربية والفكر الأوربي واضحا .

وقد وجد الفكر النهضوي العربي نفسه أمام ثلاث قضايا أساسية وجوهرية واجهها جميعا وفي مستويات مختلفة ، من خلال موقف فكري بدت فيه الرؤية السياسية أحيانا واضحة التوجه متبلورة الاتجاه :-

١ – في المستوى الفكري / السياسي كان هناك موضوع الاستبداد السياسي الذي مثلته السلطة الحاكمة والذي تحقق كلياً بغزو الاستعمار الغربي للوطن العربي وقيام الأنظمة التابعة له.

٢ – تحرير العقل العربي من الثوابت والخرافات التي علقت به فحدت من قدراته الفكرية والموضوعية بما فيها الارتقاء بواقع حياة المجتمع .

٣ – إصـــلاح الواقع الدينـــي شغل كلا مـــن المسلمين والمسيحيين في هذه المرحلة .

وكانت كل قضية من هذه القضايا الثلاث قد مثلت مهمة بالغة الخطورة كان بين المفكرين النهضويين وبين عملهم على بلوغ جدار من الجهل ، والخرافات ، والعادات المتوارثة ، والتعصب .[٩]

ومما يلاحظ بعض الباحثين على المفكرين العرب (المتنورين) الذين كانوا يدعون الى أفكار ثورية من حيث الجوهر ، هم أنفسهم كانوا ثوريين . ويرتبط هذا بحسب رؤية هؤلاء أو بخصائص نشأة البرجوازية العربية وتطورها ، وبالقلة العددية الاستثنائية للفئات المتوسطة وضعفها .

ومما يسترعي الانتباه كذلك ، أن بعض العناصر التي تؤلف مجموعة الأفكار التنويرية العربية لها ما يقابلها في الأدبيات العربية في العصور الوسطى . وقد استعان المفكرون العرب في معرض تدليلهم على صحة آرائهم بأمثلة من التاريخ العربي وتاريخ الإسلام وبالقرآن وبالأقوال المأثورة لعلماء العصور الوسطى . وقد أعادوا النظر في مادة الماضي الفكرية والآراء الاجتماعية / السياسية الأوربية الغربية المعاصرة لهم وقتئذ ، بما يتماشى مع وجهة نظرهم ، وكان هذا تغليبا وإحقاقا للحق ، كما كان يخيل إليهم .[١٠]

ولعل ما ساعد على ظهور الأفكار الغربية المتحررة وتبلور نوع من الفكر التحرري التحديثي (الليبرالي) العربي حولها ، هو ما قام به بعض المفكرين العرب من تجاوز لما هو تراثي ، بُني أساسا وجوهرا ، على ما يمكن أن يحقق أو يحمل إمكانية تحقيق فكر متحرر عربي ، زد على ذلك : - نمو الأفكار التحريرية ... وذلك أن كثيرين من المفكرين العرب قد اصبحوا

---

[٩] ماجد السامرائي - الليبرالية العربية، بداية التشكل والتكون، مجلة افاق عربية (بغداد) ، العدد المزدوج ٥- ٦ (مايس - حزيران/ ١٩٩٥) ، ص٥٩.

[١٠] ز.ل.ليفين - الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث، ترجمة - بشير السباعي، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨، ص ٨٧ و ٩٠ .

مناضلين من أجل استقلال الأقطار العربية القومي . أما الأفكار التنويرية فقد أصبحت جزاء لا يتجزأ من مفاهيم الحركة القومية التحررية التي ولدت مع بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، والتي احتلت مع بداية القرن العشرين مكانة رئيسة في حياة العرب الفكرية .[١١]

وتأسيسا على ما تقدم ... يمكن القول : - إن وعيا تاريخيا يربط الأمة بتغيرات العصر قد تكون عند نخبة فكرية لم تكن تفكر لنفسها ، بل كانت بكليتها ، تفكر لواقعها ، فعملت على التوسط بين هذا الوعي التاريخي - مكونات ومحددات - وبين الواقع الذي حددت مشكلاته ، وحصرت أزماته جاعلة من هذه المشكلات والأزمات المحور الأساسيّ لما جاءت به من فكر حرصت على أن يكون له طابعه العربي ، فضلا عما يحمل من نزعة ونزوعات تغييريه في الواقع وتتجه إلى الواقع في ضوء وعيها بحركته . ولعل هذا الاتجاه / التوجه هو ما جعل الجيل النهضوي الأول يكتفي بالدعوة إلى الإصلاح ، وإلى تغيير الواقع من داخله ، من خلال حركة إصلاحية تتناول بُنى المجتمع والأفكار السائدة فيه ، بنقدها نقدا يتراوح بين الإصلاحية والجذرية . وهم ، في هذا ، وإن أرادوا أو جعلوا الماضي جزءا من حركة الواقع الحاضر ، وهو جوهر العملية الإصلاحية ، إلا انهم لم ينغلقوا على أنفسهم دون أفكار التغيير ... فكان نقدهم الذي اتخذ في بعض المواقف والحالات صفة جذرية قد توجه إلى البنى المعوقة لحركة التقدم بالحياة والمجتمع . فمن جهة لا يكفي أن تقوم الثقافة والحضارة من جديد في الأمة على ما كانت قائمة به في الماضي ، أي العيش على نفسها ، ولذلك ، وهذا من جهة أخرى ، لابد من أن تكون الأمة على صلة بحضارة العصر وثقافته

---

[١١] المصدر نفسه ، ص ٤٤

لكي تعرف أين توقفت فيه الثقافة والحضارة وفي أي شوط مضت عند الآخر / الغربي .

وكان هذا تمهيدا فعليا لثورة الجديد على القديم في مرحلة لاحقه . فإذا كانت مهمة الإصلاح كما تستقي خلاصتها مما قام به الجيل الأول هو تطوير القديم وإدخاله في الحياة المعاصرة ، فان الثورة التجديدية التي اضطلع بها الجيل الثاني ، مع بدايات القرن العشرين ، قد تجسدت في تحقيق ما يمكن أن نعده تغييرا جذريا اعتمد أكثر ما اعتمد على بناء الإنسان أولا ، ومن ثم الدعوة إلى مزيد من العقلانية في رؤية الواقع .

لقد واجه الفكر النهضوي العربي الحديث مع البدايات الاولى للقرن العشرين مأزقه الكبير وذلك بانفراط المشروع النهضوي العربي وانتظامه في ثلاثة تيارات ، لم تلتق مع بعضها :-

تيار أخذ بالثقافة الغربية في ما حملت إليه من أطروحات ومنهجيات جديدة فاتحة بها آفاق المستقبل أمامه ، من أجل تكوين ثقافي غير محدود ولا محدد ، بأية مرجعيات منغلقة العقل على عوالم غير مدركة من قبل واقعه الذي هو فيه ، فكان ذلك مصدر أدراك جديد للنهضويين في هذا التيار ، وأفقا مفتوحا على المستقبل من أجل واقع مغاير ، وقد أسقط هذا التيار من حسابه كل تفكير بالغرب على أساس كونه استعمارا ولأخذ ثقافته في ما لها من إبعاد ومرام استعمارية .

والتيار الثاني هو ذاك الذي راح يواجه مأزقه الخاص عندما انسحب أمام التيار السابق إلى خطوط دفاع نبذت العودة الكلية إلى التراث / الماضي أو الاحتماء بطروحاته ، والرفض المطلق ، ومن موقف اتهامي تخويني لكل أطروحات التيار السابق ، ورفض الدخول في أي حوار معه . فهناك

القبول المطلق للماضي العربي ، تراثا ومقولات ومحددات .. في مقابل الرفض المطلق لكل ما يجيء من الغرب ، أو من عملائه الحضاريين .

أما **التيار الثالث** ، فهو ذلك الذي تبنى العقلانية الحديثة على أساس النظر إلى الدور النهضوي الجديد الذي يمكن أن ينهض بأعبائه إنسان هذه الأمة من منطلق عمل الفكر من أجل واقع جديد . وقد وجد هذا التيار أن عمل الفكر هذا في واقع محاصر بالتأخر تاريخيا ، والتخلف حضاريا وثقافيا ، وبالاستعمارية الغربية وجودا ، هي العوامل الكفيلة بتحقيق تفكير مختلف في ما لم ينجز بعد ، وينبغي إنجازه .

لذلك ، نجد هذا التيار قد امتاز أكثر ما امتاز بأطروحات التغيير الثوري الجديد الذي عمل على فتح آفاق الفكر والعمل لغير المتحقق أساسا لما ينبغي أن يتحقق ، أي أن هذا التيار أخذ بمبدأ التوافق مع جوهره الخاص في ما يشكله تاريخ الأمة وحضارتها ، وثقافتها وطموحات إنسانها ، مع توضيح لأفق التلاقي مع العصر من دون الدخول في توفيقية ساذجة ، أو الامتثال لنظرية التبعية التي طرحه المشروع الثقافي الاستعماري ، وأخذ التيار الأول بها نفسه وفكره وتفكيره .

في هذا الواقع / الخضم الذي تتصارع فيه هذه التيارات صراع تعايش ، جاءت محاولة صياغة السؤال العربي للحداثة على أساس : - بناء رؤية ثقافية فكرية جديدة تحسم هذه الثنائية المبددة بين الانتماء المطلق إلى الماضي والارتماء المطلق على الحاضر ، والتمسك بالهوية ، مع عدم التشعب في خطوط الواقع .

إن من نرى فيهم جيلا نهضويا ثالثا ، متمثلا بالتيار القومي العربي الجديد - الذي تميز أكثر ما تميز بحسه التاريخي ووعيه العربي الجديد - سيعمل على تفسير التاريخ بما يساعد على تغيير الحاضر الذي هو

فيه ، وبناء المستقبل الذي ينشد ... فإذا هو بحركيته التاريخية الجديدة يشكل حركة ثورية ذات وجود تاريخي، تتبنى الثورية والعقلانية في آن معا ، وتخوض معركة التحرير والبناء في الواقع العربي .

وسيعمل هذا التيار القومي العروبي النزعة والتوجه ، على إعادة صياغة أسئلة المشروع النهضوي العربي من جديد على أساس من وحدة الأمة بما يقضي على التجزئة ، وحرية إنسانها بما يكفل له إبداع واقعة الجديد بلا قيود تكبله أو شروط تحدده وتحد طاقاته... وصولا إلى بناء المجتمع الاشتراكي الرافض لجميع العلاقات الاقتصادية المتخلفة ، والأخرى التابعة .. مشكلا ثوره جذرية على الوجودين الإقطاعي والرأسمالي ، وداعيا إلى تغيير كل ما يتصل بعلاقات الإنتاج .

وسيثير هذا الجيل أسئلة النهضة من جديد ، ومن منطلقين واضحين : -

الأول : - تكريس الفكر القومي العربي بوصفه وجها تاريخيا لعروبة الأمة .

والثاني : - المواجهة التي خاضها هذا الجيل ضد الاستعمار الغربي على أرض أمتـــه من أجـــل التحـــرر وبناء الحياة الوطنية / القومية المستقلة .

وكما اتخذ الرعيل الأول من النهضويين العرب من الثقافة والحضارة العربية منبعا للقيم والأفكار التي نادوا بها ، كذلك كان الأمر بالنسبة لهذا الجيل القومي العربي الذي نظر إلى الأمة بوصفها مركز وجود تاريخي وحضاري وثقافي بالنسبة للعرب . لذلك لا غرابة في أن يتخذ التياران (النهضوي الأول ، والقومي العربي الجديد) من العامل الثقافي عاملا أساسيا في النظر إلى تكوين التاريخ العربي ... ذلك أنهما وجدا وجود الأمة يتحرك حركته الأكبر والأقوى بأثر العامل الثقافي الذي عده التياران قيمة أصلية في بناء حياة الأمة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر – فإذا كان الجيل الثاني من النهضويين العرب قد تبنى فكرة التحديث، ثقافة وواقعا اجتماعيا ، على أساس تنعقد فيه الصلة على أوثق ما تكون بالآخر / الغربي ... فإن التيار القومي العربي قد أخذ بفكرة الحداثة على أساس :- معطيات وجود الأمة ، الثقافي والحضاري ، بما يمكن أن ينعقد من حوار مع الآخر / الغربي .

لقد وصفت الحركة النهضوية العربية بالحركة التحديثية ، وكان القصد موقعتها موقع النقيض للسلفية والتقليد ، من طرف ... ومن طرف آخر النظر إلى التحديث الذي سيتحول إلى حداثة فعلية في المستويات الثقافية والفكرية والسياسية في النصف الأول من القرن العشرين بما سيتخذه هذا التحديث من وجهة عقلانية ، أو ينتظم في سياقات معرفية عملية من شأنها إشاعة النزعة المنهجية في التفكير والنظر إلى قضايا الفكر والواقع ، والتقدم بأساليب الحياة العصرية . من هنا كان المشروع النهضوي العربي قد مثل عملية تاريخية ستأخذ أبعادها الواقعية الواضحة مع البدايات الأولى للقرن العشرين – وهي التي مثلت الاحتكاك الفعلي ومن ثم الصدام المباشر مع الحضارة الغربية بطابعها التحديثي المصاغ على وفق رؤية استعمارية لواقع العلاقة ومستقبلها بين العرب والغرب . وسيبدي الجيل الثاني من النهضويين العرب حرصا خاصا على مقابسة هذه الحضارة الغازية معطياتها ، ومحاولة تمثل تطوراتها ، ولاسيما في طابعها الفكري العقلاني .

لقد وعى النهضويون العرب الأوائل أن نمط التحديث المطلوب تحقيقه في مجتمعاتهم ينبغي أن يرتكز إلى ثلاثة عناصر ، اعتبروها أساسية ، وهي :-

١ – البيئة الاجتماعية التي تتشكل من عناصر الكيان الاجتماعي ، والمطلوب تطويرها عمليا بما يحقق للأفكار والآراء والتوجيهات ما يساعدها

على أن تحل واقعا ، وتفعل فعلها في نفوس الناس وأفكارهم وأنماط معيشتهم.

٢ - التقليد الثقافي الذي نهض ، على التراث العربي الإسلامي بوصفه مرجعا للذات العربية تمتلك به كما امتلكت من قبل شروط بنائها الذاتي الذي أرادت استئنافه من جديد .

٣ - القيم الاجتماعية التي حرص النهضويون العرب الأوائل على عدم تخطيها أو القفز عليها، وفي الوقت ذاته ، تطويرها بما يجعلها تتماشى وروح العصر كما تمثلوها ، لا أن تكون معوقا أمام حركة التطور والتقدم .

وقد أصبحت هذه العناصر الأركان الثلاثة للمشروع النهضوي العربي عوامل فعالة في عمليات التغيير المجتمعي ، وثقافيا وفكريا وسياسيا واجتماعيا ، ومفجرا لعمليات التحديث المجتمعي ، إلى جانب ما قدمت ، من خلال شواهدها الموضوعية والتاريخية ، من تمثيل لنوعية التغيير المطلوب أحداثه في الحياة العربية ، والاتجاهات التي ينبغي لهذا التغيير أن يأخذها .

ولعل ما لعب دورا فعليا ومهما في هذه المرحلة ــ وسيلعب بفاعلية أكبر وأهم في المراحل التالية ــ هو أن هذا الفكر التحديثي أصبح قوة اجتماعية ، واستطاع امتلاك هذه القوة ، منذ تشكلها الأول ، محورها الواضح ... فقد كان الطموح - الذي لم يتحقق للأسف - هو القيام بإعادة بناء شامل للواقع العربي .

ومن أهم ما يمكن أن يلاحظ في هذا السياق هو أن ما كان يربط بين الحقبتين الثالثة والأولى من الحركة النهضوية العربية أقوى وأعمق مما يربط بين الحقبتين السالفتين والحقبة الثانية ... ولعل أقوى ما يتجلى فيه عمق

الارتباط هذا هو : - الصراع والنظر إلى هذا الصراع من الأفق التاريخي لوجود الأمة .

فهناك الصراع مع الآخر الذي تمثل في صورته الأولى بالاستعمار التركي ، ثم الغربي الأوربي الذي سيأخذ هذا الصراع معه أبعادا جديدة .

وهناك ما يمكن تسميته بالصراع مع الذات الثقافية والحضارية ، وهو صراع بين المفاهيم والأفكار الجديدة التي حملها النهضويون العرب وعملوا على أشاعتها .. وتقاليد المجتمع التقليدي التي وجدوها معيقة لكل حركة تقدم ، أو تغيير .

فإذا ما وجدنا الجيل الثاني من هؤلاء النهضويين يخوض الصراع مع ذاته الثقافية والحضارية والتاريخية أحيانا - تأسيسا على معطيات المشروع الثقافي الغربي - فإن ذلك كان بحكم كون المشروع الإصلاحي ، التحرري التحديثي (الليبرالي) ، الذي تبنـــوه ، وفكرهم ، ومفاهيمهم السياسية والاجتماعية والثقافية قد تبلورت في ظـــل المشروع الأوربي الـــــذي نجد تداخلاته / تأثيراته المباشرة في تكوين خطابهم النقدي واضحة . فقد جاء همهم الثقافي والفكري متركزا في العمل على تجاوز الخطاب التراثي، بجميع مرجعياته ، وتحقيق النقلة الثقافية والفكرية ، ومن ثم الاجتماعية ، إلى النظام العلماني ، وبناء وعي قائم على ما أخذوه عن العقلانية الغربية ــ وهو ما كانت قد تحددت به الحداثة في الغرب ــ إذ أراد هذا الجيل ، بعمله الثقافي والفكري ، إعادة تشكيل البنية الثقافية / الاجتماعية في المجتمع العربي ... وقد وجد ذلك ، بحكم مرجعه ومصادر تكوينه العقلي ، في التحول عن الرؤية العربية / الإسلامية في بعدها الحضاري / التاريخي الذي أكده واعتمده الجيل النهضوي الأول إلى البديل التحرري التحديثي ، الذي تمثلوه في حالة من ترابية ، اجتماعية وثقافية ، وقد أراد بعض مفكري هذا الجيل تحقيق ثقافة

جديدة بهوية بديل – تاريخيا وجغرافيا ومرجعيات ثقافية وحضارية – ثقافة اندفعوا بها نحو تجاوز هويتها العربية .

وبدءا من هذا التوجه ، حاول بعض أبناء هذا الجيل وضع أجوبة مغايرة أمام تلك الأسئلة النهضوية الجوهرية ، وقد وجدوا في أطروحات الفكر الأوربي ما تمثلوا فيه الحلول للمشكلات التي واجهوها في مجتمعاتهم ، أو تلك التي وجدوها مطروحة عليهم .

إلا أن ثقافة هذا التوجه ستتفكك ، بجميع أطروحاته ، أمام تنامي المشروع القومي العربي ثقافيا وفكريا ... ومما ساعد ذلك تصاعد حدة الصراع العربي – الأوربي في واقعه الاستعماري المهيمن على وجود الأمة ومقدراتها . وكان من نتيجة ذلك تعميق ارتباط الثقافة بالمجتمع ، مشكلات وقضايا وتطلعات ، بحيث أصبحت هذه الثقافة لا تكتفي بكونها تعبيرا عن هذا المشروع القومي ، وإنما هي ، أيضا جزء حي وفاعل فيه ، وقد عززت هذا التوجه في الثقافة العربية الجديدة نزعات التحرر السياسي والثقافي والاجتماعي في المجتمع العربي ، والمواجهة المعلنة بين قوى التحرر العربية من جانب ، والاستعمار والقوى المعاضدة له ، من جانب آخر . سيبلور هذا الجيل القضية النهضوية في إطار مشروعه القومي الجديد الذي يرى، أن تحرر الأمة من الاستعمار هو سبيلها إلى تحقيق نهضتها الفعلية ، ومنطلق انتصارها على التخلف والتأخر ، فقد ربط المفكرون الحالة المتردية للأمة بالاستعمار الذي أنهك قواها المادية والإنسانية ، جاعلين منه سببا لنتيجة. من هنا ، جاءت تصورات هذا الجيل للمشروع النهضوي العربي أوضح ، وقائمة على أسس منهجية اعتمدت في ما شكلت من رؤية من طريق ، عنصرين أساسيين : –

الأول : - هو مواجهة التحدي الاستعماري مواجهة فعلية على أرض الواقع ، وفي مستوى الفكر (حركات التحرر ، والحركات الفكرية التقدمية) .

والثاني : - هو المعرفة المنهجية بالآخر / الغربي سواء وجهه الإيجبي بما شكله لنفسه من نهضة قامت على أساس فكر الأنوار ... أم بوجهه السلبي في ما حمل إلى الآخر/غير الغربي من مشروعات الهيمنة على مقدراته ، ومحاولة وضعه موضع التبعية لمركزيته الغربية .

فكان هذان العاملان مصدرا للجدة والقوة في هذا الفكر ، الأمر الذي جعل اختياراته اختيارات واعية ، واضحة الأهداف والغايات .

ففي مواجهة الفكر الاستعماري الغربي المتعصب لروح المركزية الأوربية ، كان تأكيد الطابع الإنساني للفكر القومي العربي ، بما يغذيه من معطيات ثقافية وحضارية وتاريخية تستمد من روح رسالية واضحة .

وفي مواجهة أفكار ومشروعات الهيمنة والتبعية والاستتباع ، كان ذلك التعميق لنزعة التحرر من الاستعمار والتخلف وواقع التبعية ، يدعمها نزوع واثق إلى الحرية ، وإيمان بضرورة الوحدة العربية لمواجهة نزعات التفتيت ومشاريع التجزئة واتخاذ الخيار الديمقراطي أساسا في بناء مجتمع عربي جديد .

دعمت هذا كله ، وعضدته فكريا نزعة العدالة الاجتماعية التي ستتطور إلى تبني الاشتراكية والفكر الاشتراكي في مواجهة حالات الاستغلال والطبقية ، والنزعات الرأسمالية ، والعلاقات الإقطاعية التي سادت المجتمع العربي بفعل العامل الاستعماري .

إلا أن المسألة ذات الأهمية في الحياة الفكرية والثقافية لهذا الجيل هي :

- أنه قرأ التراث العربي متحررا من جميع النظرات والمواقف السلفية . ونظر في التاريخ العربي نظرة قومية واضحة في ضوء الحضور الرسالي للأمة . ومع أن قراءته للفكر الغربي جاءت أقل نسبيا ، وأضعف مما كانت عليه لدى الجيل الثاني ، فإن المهم فيها أنها كانت قراءة متحررة من هيمنة المركزية الأوربية التي لم تستطع قراءات الجيل الثاني من النهضويين العرب التحرر الكلي ، أو الجزئي ، منها .

من هنا أصبحت قراءة الحداثة أو رؤيتها داخل المشروع النهضوي العربي في فكر هذا الجيل قراءة عربية ــ إذا صح التعبير ــ ركزت ، من جانب ، على الكشف عن عناصر التواصل والاستمرار في التراث العربي مع الرؤية الجديدة ، ومن جانب آخر ، كانت هناك الدعوة إلى العمل على إطلاق الإبداعية الخلاقة في الأمة ، أنسانا ، والتقدم بهذا الإنسان لبناء المشروع النهضوي الحضاري الجديد .

إننا لو أعدنا اليوم استعراض الميراث الفكري والسياسي لأسئلة المشروع النهضوي أو ما عرفت فيما بعد بالتيارات الفكرية الكبرى العربية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين لوقفنا على حقيقة موضوعية تستحق الإبراز بعد طول إنكار وتغييب ، ومفادها – أن سائر هذه التيارات قدم مساهمة فكرية وسياسية رائدة من موقعه ، وعلى خلفية الإشكالية الرئيسة الحاكمة لخطابه ، وان التفاوت بين مساهمتها ليس مدعاة إلى مفاضلة ، عقائدية بينها ، ليس فقط لأن تلك المفاضلة تصدر بالضرورة ، عن نظرة معيارية فقط ، بل أيضا وأساسا لأنها تتجاهل أن ذلك التفاوت ناجم في المقام الأول عن اختلاف إشكالية كل تيار عن إشكالية التيار الآخر ، وهو

اختـــلاف يرتـــب حتما نتائج متباينـــة على صعيـــد المعطييـــن الفكـــري والسياسي .[١٢]

فقد قدم التيار التحرري التحديثي (الليبرالي) العربي مساهمة فكرية متميزة في مجال السياسة والسلطة ونظام الحكم . وقامت المساهمة إياها على قاعدة فعلين متظاهرين ، نقد نظام الاستبداد السياسي الذي لم ينته بزوال نظام الخلافة ، والتبشير بالدولة الدستورية الكافلة لحقوق الأفراد ، ولاسيما الحقوق السياسية :- الحق في الرأي ، وفي الحزبية ، وفي نظام تمثيلي نيابي ، وفي المشاركة في الحكم .

وكائنة ما كانت أمور هذا التيار وتواضع أفكاره في تلك الفترة ومحدودية عدد مثقفيه ومنظريه فانه كان أبكر من دافع عن نظام سياسي جديد يقطع مع الدولة السلطانية العثمانية واحتكار السلطة من قبل الحاكم الفرد لاحقا ويقوم على مقتضى مبدأ الحرية والحق .

ومثله قدم التيار القومي العربي مساهمة فكرية رائدة وغنية في مجال وعي المسألة الكيانية في الوطن العربي ، بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية وبداية الاحتلال الاستعماري للمشرق العربي ومغربه ، تمحورت المساهمة تلك في نقد عملية التجزئة الكيانية الاستعمارية التي قطعت أوصال الوطن العربي ، وحولته إلى فسيفساء من دويلات مفصلة على مقاس قوى سايكس – بيكو ، وعلى مقتضى عصبوي – طائفي ومذهبي ومناطقي – وهو نقد تلازم مع عملية فكرية كبرى أعادت كتابة تاريخ الأمة ، في عهدها الوسيط

---

[١٢] عبد الاله بلقزيز – مقدمته ضمن كتاب نحو مشروع حضاري نهضوي عربي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١، بيروت ، ٢٠٠١ ، ص ٣٧ .

والحديث ، بوصفه تاريخا موحدا ، وقدمت للوعي العربي صورة عن أمم وشعوب حققت وحدتها القومية ، وفتحت الطريق إلى نهضتها ، وصورة عن الفكر القومي الإنساني الحديث ، مثلما قدمت نتاجا فكريا غنيا كان مداره مسائل العروبة ، والأمة ، والدولة القومية . ومهما قيل اليوم في نقد التجربة السياسية للحركة القومية ، وفي نقد تجربة السلطة في البلدان التي وصلت فيها النخب القومية إلى الحكم ، فإن الذي لا مراء فيه أن التراث الفكري القومي يبقى من الغنى والأهمية في مضمار بيان مركزية مسألة الوحدة في النهضة العربية إلى حد لا غنى عنه .

ما يقال عن التيارين السابقين يقال عن التيار التقدمي الاشتراكي ، فقد ساهم مساهمة فعالة في بناء ربط مميز بين التنمية الاقتصادية والمسألة الاجتماعية مؤكدا أن المسالة الحقيقية في أي مشروع اجتماعي هي استئصال الاستغلال ، وتحقيق مبدأ سيطرة الأمة على مواردها الاقتصادية ، وكفالة الحقوق الاجتماعية المشروعة للطبقات الحاكمة . ولعله أول تيار أدخل المسألة الاقتصادية إلى الوعي العربي بعد طول غياب وتغيب ، وأول من تصدى لمعضلة الاستغلال الرأسمالي لقوى الشعب بوصفها رديفا لمعضلات التجزئة ، والاستبداد ، والاحتلال. ومع أن تهمة الإلحاد لاحقته بغير حق من خصومه السياسيين في السلطة والمجتمع على السواء ، إلا أن الحقيقة الوحيدة الكبرى في هذا الباب ، هي أنه كان تيارا سياسيا اجتماعيا في المقام الأول ، ولم يكن تيارا فلسفيا إلا في صورة كتابات محدودة جدا .[١٣]

وأخيرا ، قدم تيار الصحوة الإسلامية مساهمة حيوية في مجال الدفاع عن الثوابت الثقافية والقيمة للأمة ، وفي مجال تحصين هويتها من المسخ

---

[١٣] المصدر نفسه، ص ٣٨

والتبريـــر من دون السقـــوط في نزعة انكفائية سلبيـــة سقط فيهـــا تيـــار الإحيائية المنغلق .

لقد كان أول تيار يرفع من درجة الانتباه إلى المسألة الثقافية بمعناها الشامل والى أهميتها في معركة الأمة من أجل النهضة وقبل ذلك في سعيها إلى تنظيم ممانعة ناجحة ضد الهضم الثقافي الأجنبي الاستعماري المعادي .

ولعل متغير العولمة وما حمل من حقائق جديدة مقلقة للشعوب والأمم المستضعفة ، ولاسيما في مجال الهوية والثقافة ، زاد من أهمية هذا التيار ودوره ، وأسبغ على خطابه شرعية جديدة لم يكن يملك تحصيلها في السابق :- أعني في حقبة ما قبل العولمة، وأبان سيطرة الفكرة الداروينية في الثقافة عن التقدم وحتمياته ، وهي الفكرة التي استرخصت الهوية ثمنا لذلك التقدم .

لقد أعقبت هذه المساهمات ، كما تزامنت معها أحيانا ، مساهمة أخرى رديف تمثلت في الخروج النسبي لكل تيار فكري سياسي من انغلاقه الإشكالي على نفسه إلى إبداء مقادير معينة من الانفتاح الفكري على إشكالية غيره وأطروحاته .

مع أن هذه المساهمات الفكرية أتت في صورة انفصل فيها بعضها عن بعضها الآخر ، وانكفأت فيها كل مساهمة على نفسها انكفاءا مغلقا ، ألا أنها صبت في حساب النتائج في رصيد المشروع النهضوي العربي الجديد .[١٤]

إن خصوصية التطور النهضوي للأمة العربية التي ركزت عليها معظم التيارات الفكرية النهضوية الأولى ، وتواصلت أطروحاتها ، على نحو واضح من حيث طابعه الفكري العربي في أطروحات التيارات القومية ، شهدت وما

---

[١٤] المصدر نفسه، ص ٣٩ و ٤٠ .

زالت محاولات المحاصرة والضرب في العمق من قبل تيارين ، إن كانا متناقضين تناقضا أساسيا ، فإنهما في ما استهدفا كانت النتائج بينهما متقاربة في ما حققتا من عمل وهما : - التيار الاستعماري الإمبريالي الغربي بشواهده العربية التي أخذت عنه الموقف المنهجي والرؤية الفكرية ، بل لنقل الأصول التي بنت عليها هذا الموقف ، وهذه الرؤية جاعلة أو محاولة أن تجعل منها أساسا لثقافة العصر. ثم التيار الارتدادي الذي احتمى بالماضي ، وذهب إليه بديل أن يتقدم به، وكانت النتيجة أنه فتح كتب ذلك الماضي لا ليعيد قراءتها بنظرة جديدة يحتمها الوجود في عصر جديد ، إنما لينطوي داخلها ، وقد أغلقها على نفسه .

أن المحصلة الواقعية لهذا كله لم تكن في صالح المشروع النهضوي العربي ، بل لقد جاء انكسار هذا المشروع وتراجعه منذ عقد الستينيات من القرن العشرين سببا فعليا في ما يطلق عليه بعض مفكرينا – عودة الاستعمار – بروحه الإمبريالية المستشرية ، وتعزيز وجود الكيان الصهيوني ، وفي المقابل :- سقوط شعار التحرير ، وانهيار مشروع التحرر ، واستحالة قيام الوحدة حتى بين قطرين جارين ، فضلا عن تراجع الحركات الأخرى – من الإصلاحية ، إلى العلمانية ، إلى الفكر العقلاني ، والفكر القومي التقدمي الاشتراكي– وبالمقابل انفتاح الآفاق أمام الفكر التقليدي والنزعات السلفية . وقد كان هذا كله ، في جانب كبير منه ، عاملا مساعدا للسلطة العربية في مصادرة كل فكر تقدمي ، ومحاصرة مشروعات التغيير الجذري التي تبنتها الحركات الثورية العربية ، محافظة بذلك على التوازن الذي يخدم بقاءها واستمرارها ، باعتماد التحديث القسري ، من جانب ، ومصادرة كل دور يمكن أن يكون ، لمجموعة أو فرد ، خارج ما تقرر له من سياقات، من جانب آخر .

وإذا كان هذا كله يقدم الدليل واضحا على انهيار الحداثة ، فكرا وتجربة في الواقع العربي بكلية مشروعاتها ، أكثر مما يؤهلنا للكلام على إعادة بناء الحداثة ، فإن هذا الواقع الذي نجد أنفسنا فيه اليوم ، ينبغي ان لا يكون مصدر استسلام فكري لنا ، نقدم عليه ونحن نواجه مثل هذا التحدي الكبير .

وفي مثل هذا الواقع ، ولمواجهة انهياراته المتتابعة ، ينبغي أن نعيد إثارة أسئلة النهضة من جديد ، وان نحاول التقدم إليها بأجوبة جديدة ، الأمر الذي يحتم علينا أن ندرك ، أن قوتنا في نهضتنا ، وليست في تبعيتنا .

وعليه فإنه مع هذا التراكم من المساهمات الفكرية المختلفة من مواقع متباينة ، ومن مواقع متداخلة ، نحن أمام حقيقة جديدة نوعية تتزايد رسوخا هي : – ولادة خطاب فكري جديد مشترك نصطلح عليه (الخطاب النهضوي العربي الجديد) . نعثر في هذا الخطاب على سائر أفكار تيارات الفكر والسياسة وطروحاتها في الوطن العربي .

لكننا نجدها فيه متجاورة متراكبة لا متنابذة متجافية على نحو ما كان عليه أمرها في الماضي . والتجاور هذا كان وما زال ثمرة مراجعة خصبة ، من قبل الجميع لنوازع التخندق العقائدي التي حكمت وعي كل فريق فكري سياسي في السابق فمنعته من رؤية مساهمة غيره ، والتفاعل معها بالحوار.

ومن هذا الاستنتاج ، نتأدى إلى نتيجة تترتب عليه ، وتتعلق بالأطراف التي يمكن أن تكون قوى المشروع النهضوي هذا ، والنتيجة التي نعني ، هي ان قوى هذا المشروع هي نفسها الأطراف التي شاركت في صوغه ، وهي فكريا وسياسيا قوى التيار الديني الإصلاحي والتيار القومي والتيار التقدمي الاشتراكي والتيار التحرري التحديثي الخ . إنها جميعا شريكة في هذا

المشروع ، وبالتالي فهي الأحرص على أن تتعهده بالرعاية الفكرية والمادية ويفترض ذلك أيضا ، أن تجند كل مواردها المعنوية والمادية من أجل تحقيقه.

ان نهضوية الفكر العربي النهضوي، كانت في حينها معيار وجود ، وقد تميز فكر النهضويين هذا بشيئين:- الاختلاف والمقارنة. فاذا كان الاختلاف قد قام على فكر متميز، فان المقارنة لما يجاوره هي التي ميزته، فجعلت له حضوره ، بما هو تعبير عن ذات مفكرة من افق انساني وثقافي/ حضاري اخر.